الباب العاشر

مكانة ديكنز الادبية فى المستقبل

لو رجع القارىء إلى الوراء قليلا ، لتذكر اننا وعدناه فى نهاية الباب الأول من هذا الكتاب باستيفاء بحثنا عن مكانة ديكنز فى الأدب فى عصره ، وتأثير هذه المكانة على الاصلاح الاجتماعى ، والمقارنة بين ديكنز وثاكرى ومكانته الادبية فى المستقبل ، بعد أن سردنا قصة حياته ، وحللنا ما يقرب من ثلاثين رواية من رواياته المشهورة . .

فالآن وقد وقف القارى على قصة حياة المصلح الكبير ديكنز ، وما تخلل حياته من تيارات عاتية ، ابرزته واخرجته ، وسمت به الى مصاف الكتاب العظام . يجدر بنا ونحن نختتم صفحات هذا الكتاب ، أن نذكر مدى تأثير ادب ديكنز فى المستقبل فنقول :

« ادب ديكنز »

ليس أعسر على المؤرخ ، أو على ذلك الذى يعرض لتاريخ حياة عبقرى أو كاتب أو اديب، أن يحكم حكماً قاطعاً فيما إذا كان ذلك العبقرى أو الكاتب أو الأديب ، يعيش مخلداً فى أذهان الناس على تعاقب السنين ، وكرها وفرها فى حلبة الزمان . . .

وذلك يرجع إلى أن كثيراً من الناس يستسيغون أدب كاتب عن كاتب ،

أو ادب ديكنز عن أدب غيره ، وبعضهم يفضل أدب غيره، وبعضهم يفضل أدب غيره عليه ، وهكذا طبقا لمقتضى الحال ، وذوق الانسان ، ومدى استعداده لتفهم ألوان الأدب المتشعبة وهضمها . . .

ولكننا فى الوقت نفسه قد يعسر علينا أن نتجاهل أو نغض النظر عن مكانه ديكنز الثابته فى الأدب الأنجليزى . ومن الغباء أن ننكر عليه ما اسداه من خدمات جليلة ، وفضل كبير فى النهوض بذلك الأدب نهوضاً رفع من شأنه وقلده مكانة رفيعة بين آداب الغرب . .

فمكانة أدبه فى القرن التاسع عشر بلغت اعلى ذروة . وكان القارىء الأنجليزى فى ذلك الوقت يقطع بأن انجلترا على جلالة قدرها ، لا تضم فى ربوعها غير خمسة أو ستة من كتاب الرواية هم : بلور ليتون ، وثاكرى وشارلوت برونتيه ، وجورج اليوت . وعلى رأس هؤلاء جميعا تشارلس ديكنز !

ومر اربعون عاما ، عاد بعدها القارىء الانجليزى يحكم من جديد بأن اعظم كتاب الرواية فى بلده هما من غير نزاع ثاكرى وديكنز . .

ولعلك إذا سألت ديكنز نفسه فى ذلك الوقت : من هو اكبر كتاب الروايه فى انجلترا ؟ لاجابك على الفور : ثاكرى وجورج اليوت . أو ثاكرى وشارلوت برونتيه . وانقضت أعوام أخرى ، وكاد القرن التاسع عشر أن ينمق ويذوى ، وديكنز فى الطليعة ، أو ديكنز وحده سيد الميدان ، لا يجرؤ على منازلته انسان !

« ديكنز وثاكرى »

ومع هذا كله فان ذكرى ثاكرى قد لا تنمحى من الذاكرة ، إذا ما سقنا الحديث عن مكانة ديكنز الأدبية ، وذلك لسبب ظاهر هو أن أدب ثاكرى الفياض بالعاطفة ، وما كان يعتقده بأن الحياة تأمل حزين فى الماضى ببأسائه ونعمائه ، بخيراته وشروره » ادب خالد لا يموت . .

ومن العسير إذن أن يتجاهله المؤرخون . ولنضرب لذلك مثلا فنقول إن رجال الأدب يعودون من وقت لآخر إلى آثار « لرستس » بطل النهضة الفرنسية أو « دى بلاى » وهكذا نعود نحن إلى ذكرى ثاكرى.. ورجوعنا مباشرة إلى ثاكرى معناه أن ديكنز سيتخطى ويتغلب على ثاكرى تماما كما تخطى « رابيليه » زميله « دى بلاى » وقد بلغ كلاهما أعلى مراتب التقدير..

« آراء النقاد فى أدب ديكنز »

واذا حاولنا أن ننحاز ـ ولو إلى حين قصير ـ مع النقاد عند تقدمهم لكتابات ديكنز لوجدناهم يقولون بانه كتب كتابات كثيرة ورديئة . ولكننا إلى نظرنا بعين الانصاف إلى ما يقولون ، لوجدنا أن هذا لن يقلل من قيمته الأدبية بدليل أن شكسبير على جلالة قدره ، ووردسورث على عظمته كتبا كثيرا من اللغو ، والكتابات الرديئة الخاوية التى لا طائل من ورائها . . .

وفى رأينا أن كتابات ديكنز الرديئة ـ مهما قيل حولها ـ لن تمس عبقريته بسوء أو تحط من قدره . وذلك لأن ديكنز كان ينزع الى توزيع الشخصيات الضعيفة أو الرديئة توزيعا عادلا مناسبا . ويصب عليها جام

غضبه ، وينزل بها اشـــد العقاب ، في حين انه كان يمجد ابطال شخصياته الاقذاذ ويجسم فيهم المثل العليا أحسن تجسيم . . .

ومن اجمل ماذكره تشسترتون ـ الكاتب الانجليزي الكبير ـ في هذا الصدد ما ذكره في كتابه « تشارلس ديكنز » إذ كتب يقول « في رواية ديكنز « صديقنا الصدوق» ابرز لنا الكاتب شخصية رجل يهودي، لأن احد المراسلين اليهود نقم على ديكنز ، لخلقه احد الشخصيات اليهودية في رواية «اوليفر توست» فظن الناس أو ظن المراسل حينذاك أن ديكنز يرمي في ما ذهب اليه الى أن اليهود قوم خبثاء ! ! »

ومن طريف ما نذكره ، أن هذه الشكوى الجنونية أثارت فضول ديكنز ، ذلك الرجل الذي اعتاد أن يمزق أوصال الناس شر تمزيق من شكايات أو اقوال خرقاء كهذه ، ادخلت على نفسه السرور البالغ لعدم فهم طبقة معينة من النـــاس له . فعاد يداعب المشتكي بسخريته وهزله في روايته المعروفة « صديقنا الصدوق » بدعابة لا شك انها أطارت صواب المراسل المسكين !!

لم تكن كتابات ديكنز سخفاً أو لغواً ، كما قال بعض النقاد . ولكن حكم الناس العادل لا يجيء إلا إذا اكتملت مداركهم ، فهؤلاء النقاد جميعاً كانوا قصار العقول ، ضعاف الحكم لا غير . . .

وهل نذكر القارىء بما كان يقال حول سياسة نتشال وفلسفة الاستاذ هيجل من لغو وقصر ادراك !

ولا يفوتنا أن نذكر ما قاله النقاد بأن بعض شخصيات ديكنز واعمالهم كانت غير محتملة أو مصدقة . ولكننا لو دققنا النظر قليلا ، وحكمنا العقل والمنطق فيما نراه . لوجدنا أن الفارق بين هذه الشخصيات ، والشخصيات

الحديثة لفارق كبير قد لا يصدق . ولكن الناس تكتفي عادة بالمظاهر ولا تحاول التدقيق أو البحث وراء منطق الأشياء .

وإذا قال انسان لماذا كانت شخصيات ثاكري أو تروبول معقولة ومصدقة ، نجيبه بأن ثاكري وتروبول اعتادا دائماً خلق شخصيات تتفق مع العصر الحديث . .

مستقبل أدب ديكنز

ومهما يكن من أمر فان أدب ديكنز سيظل خالداً سواء اعجب ذلك النقاد أو لم يعجبهم . لأن الناحية التي تخلد ادبه هي ناحية الخلق والابداع ، اللذان امتاز بهما عن غيره من الكتاب الذين عاصروه . فقد خلق اشياء لم يجد غيره على خلقها .

يكفي انه خلق شخصية « دك سويفلر » في طريقة تخالف ثاكري في خلقه لشخصية « كولونيل نيوكم » فخلق ثاكري لشخصيته لم يأت إلا عن طريق الملاحظة . اما ديكنز فخلقه ابداع وشعر ، وهي لذلك ابقى واركز أثراً ...

أما بعض النقاد الذين عرفوا فضله ضربوا مثلا فقالوا : إن ولنجتون ونلسون نالا شهرة كبيرة في عالم السياسة والحرب والدهاء . ولكن شهرة نلسون كانت أوسع مجالا من شهرة ولنجتون . وكذلك الحال مع ديكنز فشهرته تطغى على شهرة من عاصرة امثال ثاكري وجورج اليوت وغيرهما . لأن أعمال ديكنز كانت عالميـــة في اهدافها ومراميها . ولم تقتصر على شيء معين . بل تناولت كل شيء بالتهذيب والاصلاح والتمحيص ..

ولا غرو إذا قلنا في نهاية هذه الكلمة اننا في بحثنا هذا الطويل عن ديكنز

لم نجد من يماثله غير « بايرون » فى الناحية الإصلاحية . فقد ترك كلاهما للعالم آثارا مجيدة وآيات ادبية رائعة ستظل محتفظة بمكانتها الأدبية الرفيعة أبد الدهر . . .

كتاب المجد . . .

لو قلبنا صفحات التاريخ ، ونقبنا فى آثاره ومعالمه بحثاً عن ذلك الكتاب المفقود « كتاب المجد » أين نجده . ؟ أين نعثر عليه ؟ وفى كتابات من يكون؟ وهل إذا وجدناه ، وعثرنا عليه ، فلمن يكون ؟ .

وإذا كان لعظيم من عظماء العالم . . فكيف صنعت مادته ؟ هل من جلد الانسان الزائل ؟ أو مما خطته أنامله على صفحاته ؟

الواقع الذى لا شك فيه ، أن مداد ذلك الكتاب لا بد أن يكون من دم ذلك الانسان ومن دموعه السخينة ومن قلبه المنكسر ! !

هكذا كانت كتابات ديكنز ، كتبت من دمه الذكى ، ومن دموعه السخينة ، ومن قلبه الذى حطمته الحياة ! !

لوحة من كتابات ديكنز

وهو آخر ما كتبه قبل وفاته

كان آخر ما عثروا عليه فى اوراق ديكنز بعد مماته ، بعض اوراق من قصة التى لم تمهله الاقدار حتى يتمها . وهذه القصة هى التى ظهرت بعض أبوابها الأولى فى ستة أعداد متتابعة فى إحدى المجلات المصورة تحت عنوان « سر ادون درود » .

وكشفت هذه الاوراق التى عثروا عليها على مقدرة ديكنز الفذة فى الكتابة وبلوغه سن الكمال الروائى . فاظهر شخصيته كشخصية سابسى ، الخبير المثمن، كما استطاع أن يخلق كبلر وبيرتريه . وهماشخصيتان جديدتان لم نعرفهما من قبل . ولقد رأينا اذن ، أن ننقل هذه الاوراق الى العربية ، ليشهد القارى بنفسه قوة ديكنز ، ومقدرته الفذة على الخلق والإبداع .

كيف امتنع المستر سابسى من الذهاب

الى نادى الثمانية

« ١ »

« لما كنت أحب النزهة كنت دائما آخذ منفذاً غير مطروق الى النادى فى ليلتنا الوحيدة التى كنا نجتمع فيها . وكنا نستجمع كل قوانا . ولا غرو فقد كنا ثمانية افراد كونا ناديا اسميناه « نادى الثمانية » ، وكنا نجتمع فى الثامنة مساء اثناء الشهر الثامن من السنة . ونلعب العابا ثمانية بثمانية بنسات للعبة الواحدة . وكان عشاؤنا مكونا من ثمانية ارغفة ، وثمانى قطع لحم ، وثمانى قطع من « المنبار المحشو » وثمانى قطع من البطاطس وثمانى قطع من نخاع العظام ، وثمانية زجاجات خمر .

وقد يكون أولا يكون هناك غرابة فى هذه النزعة . ولكنها على كل حال كانت فكرتى انا ، وأنا صاحبها !!

« وكان بيننا عضواً مرحاً فكها على الدوام يدعى كبلر . وكانت حرفته الرقص . لايهتم بشى فى الدنيا . فكل شىء عنده سهل ميسور .. لامتاعب ولا احزان !!

« وما أن دخلت بهو النادى مرة حتى سمعت كمبلر هذا يقول !

« ولا يزال هو يظن ان له مكانة مرموقة فى الكنيسة !! »

« وما كدت اضع قبعتى على المشجب الثامن، حتى طن فى أذنى قول كمبلر فما كاد يلمحنى حتى اخفض من صوته ، واسرع فى تغيير مجرى الحديث ولم اهتم كثيرا بهذه الملاحظة . ولكنها مالبث أن رجع صداها يدوى فى أذنى من جديد . لاعتقادى ، أو لحديثى الكثير عن «دستور الدولة والكنيسة» « وكان العضو الآخر فى نادى الثمانية « يدعى المستر « بيرتريه » وكان أيضا عضواً فى كلية الجراحين الملكيين . ولم أكن اهتم كثيرا به أو بأمثاله أو اعبأ بآرائه .

« وكان بين الاثنين — كمبلر وبيرتريه — قرابة فى خفة العقل والرعونة والطيش ولم أعرف ذلك الا عندما بعت حاجات كمبلر مرة بالمزاد . وكان ارملا وله ابنتان ليستا على قسط كبير من الدمامة . بل كانا حقاً فى غاية الجمال . وكلا الابنتين كانا يعلمان الرقص فى مدرسة خاصة .

« وعندما عرضت حاجات كمبلر للمزاد العلنى ظهر بيرتريه . وبالطبع فهمت على الأثر لماذا يبتاع بيرتريه حاجات كمبلر التى لم تتعد حذاء خفيفا وصدرية بيضاء وفطنت على الأثر ماذا سيفعل بهما . فقد كان رجلا ثوريا عاش فى الهند حقبة طويلة وله آراء غريبة تكاد تكون جنونية . وفيما بعد رأيت ثانيا الحاجيات التى اشتراها بيرتريه عند كمبلر . فدهشت ، ولكننى فهمت على الأثر ، رغم قصر ادراكى لمسائل الحياة . أن كمبلر لابد أن يكون قد سدد ماعليه من ديون واسترد حاجاته ولكن بجانب هذا كنت اعرف جيد المعرفة بان كمبلر لم يكن لديه المال الكافى

« ولما كانت المرة الأولى التى رأيت فيها الاثنين بعد المزاد . آثرت الانتظار ،ولكن سرعان ماعاودنى حب المشاكسة فقلت فى نفسى : عندما بعت حاجيات هذا اللعين . كنت قد أبديت بعض ملاحظات . فهل اعيد قول شىء منها الآن على سبيل الفكاهه والاخذ بالثـــأر . فاسرعت أقول للحاضرين : ان الكتالوج الذى أمامكم ايها السادة ليوضح فى عبارة بليغة على الصفحه الأولى منه هذه الجملة : بيعت باعلام قضائى لصاحب الدين !

ثم بدأت اذكر اصحابى بأن الرجل الذى بيعت حاجاته بالمزاد كانت عزيزة عليه الدرجة كبيرة وان كانت رخيصه فى نظر المجتمع لانها لاتتعدى حذاء وصدريه ثم اعدت تقسيم العبارة الى اجزائها الثلاث : بيعت : اعلام قضائى : صاحب الدين !!

وقفز كمبلر كالملدوغ متجها نحوى . فاتجهت اليه بدورى ـــ فقد كنت صاحب الدين الذى استخرج اعلام الحجز ضده

وقال الرجل متحديا اياى ـ يامستر سابسى . كنت اتحدث الى غريب صادفنى فى عرض الطريق وأنا فى طريقى الى النادى . وقد سبق أن تحدث اليك سابقاً فى فناء الكنيسة على مايظهر ، ورغم انك قلت له من تكون، فمن العسير أن اوافقه أو اصدقه على ماقاله بأنك رجل لك مكانة ملحوظة بين رجال الكنيسة .

وانبرى برتيرية يقول : غبى !

ورد عليه كمبلر يقول : وحمار !

وقال الخمسة الأعضاء الآخر : غبى وحمار !

فاستدرت اليهم جميعاً وقلت : غبى وحمار ايها السادة تعبيران قويان لايطلقان على شاب وجيه ذى مكانة

فاجاب بيرتريه : انك ستعترف بانه غبي !

واعقبه كمبلر : ولا يمكنك أن تنكر بانه فارغ العقل !

وكان ذلك اعلان بالحرب والهجوم . فقلت : ولكن ماذا جناه ذلك الشاب حتى تهاجمانه على هذا النحو : انه ابدى ملاحظة قد يكون مخطئاً فيها.

فاجاب كمبلر : ولكنه كان جاداً فيما يقول

« وضحك الاعضاء الستة حتى كادوا ينبطحون على ظهورهم من شدة الضحك . واساءني ذلك كثيرا . ضحكات التهكم والسخرية هذه . واستشطت غضبا لسخريتهم بذلك الغريب البريء . فقمت من مقعدي وصرخت قائلا

« ايها السادة لقد ركبتم رؤوسكم ! لن اتحمل بأي شكل اهانتكم لغريب وأهددكم باستقالتي فوراً من عضوية النادي . فقد سخرتم بتقاليد الضيافة . وحرمة الغريب .

« ايها السادة ! حتى يأتي ذلك اليوم الذي تعرفون فيه كيف تسوسون الامور ، وتضعونها في نصابها ، وتكونون أحسن خلقا واقوم حالا مما انتم عليه الآن اعود اليكم..

« والآن أيها السادة ! فانني انسحب غير آسف الا على شيء واحد، هو وضاعة اخلاقكم . وما دمتم قد اصبحتم سبعة اعضاء فارجو لكم حسن التوفيق »

« واختطفت قبعتي وخرجت . وما كدت اهبط الدرج حتى سمعت تهليلهم ، وضحكاتهم العالية . حقاً هذه هي قوة اخلاق البشر ومعرفتهم اساليب الحياة ...

« نعم لقد اخرجتهم عن حدود تقولهم!؟ »

« ٣ »

« ومن كنت القـــاه فى الطريق ، على بضع ياردات من باب الحانة التى فوقها النـــادى . غير ذلك الشاب الانيق الذى كان موضوع سخرية الاعضاء السبعة منذ لحظات . .

فبادرنى بقوله وهو متشكك ـ المستر سابسى أو . .

فاجبته على الفور ـ نعم انا هو المستر سابسى وليس غيره . .

ـــ اعذرنى يامستر سابسى . . أنك تبدو غاضباً يا سيدى !

ـــ كنت غاضباً . . غاضباً لك . .

ثم اطلعته على ما حدث منذ هنيهة وسألته عن اسمه . .

فاجابنى ـــ إن فطنتك يامستر سابسى لتفوق الحد . ونظرتك البعيدة الغور فى شخصيات الناس لجديرة بالتقدير والاحترام . فاذا أنكرت أن اسمى هو بوكر فماذا يفيدنى الانكار ؟

والواقع اننى كنت على وشك أن اتكهن بمعرفة اسمه . ولكننى آثرت الصمت وعلى كل فلم يذهب حدسى هباء ! ! » .

فقلت أخيرا فى بشر ـ حسناً . . حسناً ياسيدى . اسمك بوكر . وليس هناك من حرج إذا دعوتك « بوكر » ! !

فصرخ الرجل قائلا ـ باركك الله يا مستر سابسى لكلماتك هذه . . . ثم نظر فى خجل إلى الارض عندما فاه باسمه

ولكننى قلت ـ تعال يابوكر ! دعنى اسمع منك شيئاً اكثر عن نفسك قل لى أين انت ذاهب يابوكر ؟ ومن أين اتيت؟فاجاب الشاب وعلامات

البشر تطفح على وجهه ـ الهرب من المسئولية خبل ، والهروب من سجن الى سجن ! فانت تعرف ، يابعيد النظر ، اننى اتيت من مكان ما ، وذاهب إلى مكان ما وإذا أنكرت ذلك فماذا يعود على الانكار ؟ !

فاجبته بسرعة ـ إذن فلا سبيل للانكار . .

فرد بوكر ـ أو إذا انكرت اننى اتيت إلى هذه المدينة لآراك واسمعك ياسيدى ، فماذا يعود على . . أو اذا انكرت أن . . .

وهنا تنتهى آخر كلمته كتبها ديكنز بعد أن أسلم الروح فجأة فى اليوم التاسع فى شهر يونيو عام ١٨٧٠ . . واليد الوحيدة التى كان فى امكانها أن تتمم القصة قد استراحت إلى الابد . . .

فهرست روايات ديكنز

اوراق بيكويك	صفحة	٥٩
اوليفر توست	»	٧٢
نيقولاس نيكلبي	»	٧٨
ساعة السيد همفري	»	٨٣
الحانوت العجيب	»	٨٤
بارنبي ردج	»	٨٦
مارتن شزلويت	»	٩٢
دومبي وابنه	»	٩٣
دافيد كوبر فيلد	»	٩٥
انشودة عيد الميلاد	»	٩٩
الاجراس	»	١٠٣
عصفور البيت	»	١٠٩
معركة الحياة	»	١١٠
الرجل تطارده الاشباح	»	١١٣
معنى عيد الميلاد للكبار	»	١١٤
بليك هاوس	»	١١٦
مذكرات أمريكية	»	١٢١
تاريخ انجلترا للاطفال	»	١٢١

ايام الشدة	»	١٢٢
دوريت الصغيرة	»	١٢٣
قصة بلدين	»	١٢٩
توقعات خطيرة	»	١٣١
صديقنا الصدوق	»	١٣٣

كتب تحت الطبع

بقلم ميشيل نكلا

عشرة من الاعلام الثمن ثلاثون قرشاً

قصة حياة كل من كونفشيوس — مونتانى — باسكال — سبينوزا — فولتير — روسو — توم باين — مازينى — دارون — ثورو . .

مع عرض واف لفلسفاتهم ونظراتهم فى الحياة

الطبعة الثانية من كتاب :

هيوج برنارد شو الثمن : خمسة وعشرون قرشاً

مزودة ومنقحة — مائة اضافة جديدة — تلخيص لاحدث مؤلفاته: آراء فى السياسة وجرائم السجن ..

هب واهوال الثمن : عشرة قروش

قصة معربة عن الانجليزية بقلم هيوج كلفلى وتخرجها « مجلة الغرائب » قريباً ....

تنبيه :

وقعت بعض اخطاء مطبعية اسفنا لها كثيرا، وقد رأينا أن نلفت نظر القارئ اليها، معتمدين على فطنته وذكائه

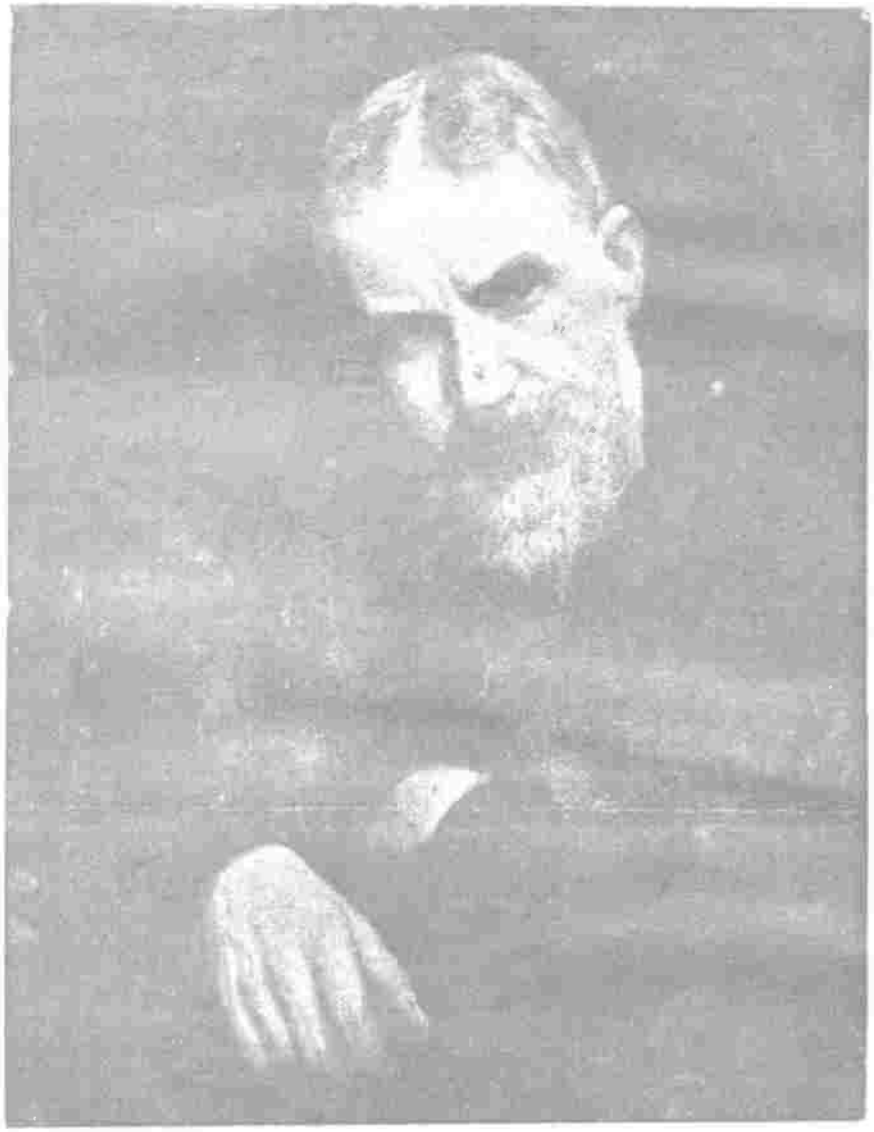

جورج برنارد شو : يفلم ميشيل نكلا

الطبعة الثانية تظهر قريباً جدا

الثمن ٢٥ قرشاً